

## التناولات النحوية عند يونس بن حبيب ت 95-183 هـ.

الدكتور أمان الدين محمد حتات

وقف النحو العربي على أعتاب مرحلة جديدة، بدأت على يد يونس بن حبيب، والخليل ابن أحمد الفراهيدي، ونستطيع أن نصف هذه المرحلة بأنها بداية مرحلة النضج النحوي. وكانت مرحلة النضج هذه بصرية كما كانت حال النشأة، ولم يكن للكوفة في ذلك دور كبير، إذا ما قورن بدور البصرة آنذاك. تعدى النضج الذي نقصده في هذه المرحلة موضوع رصيذ الظواهر الإعرابية، والظواهر التركيبية للجمل - كما بيئا-، وظهرت نظرية العامل النحوي، وأخذت أبعادها، وملامحها، وكذلك العلة النحوية التي كان ليونس والخليل الفضل في رسم خطوطها الكاملة، وقُل مثل ذلك في القياس النحوي الذي أخذ من علم الفقه الشيء الكثير نتيجة للتمازج الفكري بين مختلف التيارات، والمذاهب. كلُّ ذلك أدى بدوره إلى إدراك قيمة التراث القديم من الشعر الجاهلي، ومن يحتج به، فعرّفوا مستويات الفصاحة، وشرائعها، وتعاملوا مع هذه المستويات معاملة هدفها الوصول إلى وضع القواعد الكاملة للغة العرب.

### سيرته 1 :

هو يونس بن حبيب الضبّي، كان مولى لبني ضبّة، فُنسب إليهم، وقيل: إنه ليثي. ونسبه بعضهم إلى بكر بن عبد مناف بن كنانة، ونسبه آخرون لبلال بن هرمي، من بني ضبيعة بن بجالة، وذكر بروكلمان أنه قد يكون من النبط الأراميين، وقال آخرون: إنه أعجمي. اختلف المؤرخون في (حبيب)؛ قال بعضهم: إنه اسم أمّه، وهو علمٌ مرخّم، وإنه لا يعرف أبوه. وقال آخرون: إنه اسم أبيه؛ وقولهم: إن حبيباً هو اسم أمّه، وإنه لا يعرف اسم أبيه قولٌ لا أساس له من الصحة؛ ذلك أنّ أبا يونس كان على علم باللغة والشعر، وهو الذي دفع ابنه للاهتمام بهذا العلم، فقد ورد أنّ يونس قال: (أرسلني أبي إلى روبة أسأله، كيف ينشد هذا البيت:

أَبْنِي لَبِيئِي لَسْتُمْ بِيَدٍ إِلَّا يَدٌ لَيْسَتْ لَهَا عَصْدُ

أم يداً، فقال: كيف شئت؟<sup>2</sup> وهذا السؤال يدل على معرفته في مسائل النحو، وتعمّق فيها لما في البيت من قضايا الاستثناء، فإذا صحّت رواية من قال: إنه لا يُعرف أبوه، وغير ذلك من الكلام لكان في ذلك مطعناً كبيراً ينال خصومه به منه<sup>3</sup>.

تقول أخبار يونس بن حبيب: أنه لم يتزوَّج، وعاش حياته منقطعاً للعلم على الرغم ممّا توهمه ابن الجزري في طبقاته، ولم يذكر المؤرخون شيئاً عن أقاربه إلا ما ذكر من أنه له ابن أخ كان يميل إليه. ولد يونس في العراق في بلدة يقال لها جبّل على نهر دجلة بين بغداد وواسط سنة 95 للهجرة على أرجح الأقوال، وتوفي سنة 183 للهجرة في خلافة الرشيد عن عمر يناهز ثمانياً وثمانين سنة، وفي ذلك أقوال كثيرة.

### علمه 4 :

عاش يونس بن حبيب عمراً طويلاً، كان فيه شغوفاً بطلب العلم، والأخذ من منابعه الأصيلة؛ فقد عاصر أكابر علماء اللغة، والحديث، والقراءة، فأخذ اللغة والرواية عن أبي عمرو ابن العلاء، والأخفش الأكبر<sup>5</sup>، والحديث

[ 1 ] انظر وفيات الأعيان لابن خلكان (محيي الدين) 245/6، طبقات النحويين واللغويين للزبيدي 53 الفهرست لابن النديم 69، طبقات القراء لابن الجزري 406/2، الأغاني للأصفهاني 193/18، مراتب النحويين لأبي الطيب اللغوي 21، نزهة الألباء للأبنباري 51، معجم الأدباء لياقوت الحموي 67/20، تاريخ الأدب لبروكلمان 130/2.

[ 2 ] البيت لأوس بن حجر، لبيني: اسم امرأة، وبنو لبيني من أسد بن وائل، يعبرهم بأنهم أبناء أمّة، إذ ينسبهم إلى الأمّ، تهجيناً لشأنهم، وأنهم هُجناء. لستم بيدي، أي أنتم في الضعف وقلة النفع كيدٍ بطل عضدها. وبروى البيت: لستم بيدي إلا يداً. انظر الكتاب (حاشية) 317/2، وديوان أوس بن حجر 21 تج: محمد يوسف نجم بيروت 1960م.

[ 3 ] انظر المفصل للحلواني 202، 203.

[ 4 ] انظر طبقات النحويين واللغويين للزبيدي 48-50، وانظر مراتب النحويين لأبي الطيب اللغوي 21، 22، والمدارس النحوية لشوقي

ضيف 28، 29.

[ 5 ] هو عبد الحميد بن عبد المجيد (ت 177هـ) مولى قيس بن ثعلبة، أبو الخطاب من كبار العلماء بالعربية، لقي الأعراب، وأخذ عنهم، وهو أحد شيوخ سيبويه، وأبي عبيدة، وأبي زيد الأنصاري، والأصمعي في اللغة. انظر: بغية الوعاة للسيوطي 296، وإنباء الرواة للقفطي 157/2.

وصل يونس إلى مرتبة عالية من العلم جعلته يتبوأ مكانة كبيرة في البصرة، حتى غدت حلقته قبلة الطلاب والمريدين، وأنجبت عباقرة العلم آنذاك؛ منهم أبو عبيدة صاحب مجاز القرآن، وأبو زيد<sup>7</sup>، وخلف الأحمر<sup>8</sup>، والأصمعي في اللغة والرواية، وسيبويه، والكسائي، والفراء، والجرمي<sup>9</sup> في النحو. لم يكن هؤلاء الطلبة على درجة واحدة من التأثر بيونس بن حبيب، فقد اختلفوا في درجات إفادتهم من شيخهم، وأخذهم عنه، فسيبويه أخذ عنه كثيراً، ويتضح ذلك من خلال كتابه. ووفد عليه الكسائي راجباً علمه بعد أن حصل الرؤاسي علماً غزيراً<sup>10</sup>، وأخذ الفراء بعد أن أفاد من علم أهل الكوفة<sup>11</sup>. أما أبو عبيدة فقد تأثر به كثيراً حتى قال: (اختلفتُ إلى يونس أربعين سنة، أملاً كلَّ يوم ألواحي من حفظه)، أما أبو زيد فقد قال: (جلست إلى يونس بن حبيب عشر سنين، وجلس إليه قبلي خلف الأحمر عشرين سنة)<sup>12</sup> وممن أخذ عنه قطرب أحد تلاميذ سيبويه، وابن أبي عبيدة الذي اشتهر بمناظرته للكسائي، ويحيى بن المبارك اليزيدي<sup>13</sup>، وكثيرون غيرهم. يتبين لنا مما ذكرنا أن يونس بن حبيب الذي لم يعطه التاريخ حقه، كان بحراً في علمه، تلمذ له كثير من النحاة الذين غدوا فيما بعد أئمة النحو العربي، وأربابه. ولا بد لهذا العالم الكبير من أن يخلف علماً غزيراً يودعه في تصانيف متعدّدة، وعلى الرغم من أنه لم يصلنا منها شيء إلا أن أسماؤها تدلّ على أنه سار على نهج أستاذه أبي عمرو بن العلاء، وترك تصانيف مهمة، اهتمّ فيها باللغة واللهجات أكثر من اهتمامه بالنحو. وأظنّ أن كتبه هذه على ما فيها من لغّة، وغريب، ولهجات قد ضمّت مسائل نحوية وفيرة، حيث يتداخل النحو، واللغة؛ بدليل أنّ سيبويه ينقل عنه في كتابه نقولاً تظهر تأثره بعلم كبير من أعلام النحو.

كان ليونس عدد من التصانيف، ذكر منها المؤرخون سبعة<sup>14</sup>، هي: معاني القرآن الكبير، ومعاني القرآن الصغير تناول فيهما كثيراً من المسائل النحوية المتفرّعة عن الآيات القرآنية؛ يظهر ذلك من خلال ما يورده سيبويه وغيره عن يونس من وجوه، وآراء نحوية، وقرارات قرآنية<sup>15</sup>. وذكروا أن له كتابين: كتاب النوادر الكبير، وكتاب النوادر الصغير؛ وفي ذلك يقول السيوطي: (قال يونس في نوادره: أهل الحجاز يقولون: خمس عشرة، خفيفة لا يحركون الشين، وتميم تنقل، وتكسر الشين)<sup>16</sup>. وذكروا أنّ له كتاباً في (اللغات)، وآخر في (الأمثال)، وقيل: إنّه صنّف كتاب (القياس في النحو)<sup>17</sup>.

كان يونس على درجة كبيرة من العلم شهد له فيها الجميع؛ وأشادوا بفضله ومكانته العلمية؛ قال عنه تلميذه أبو عبيدة: (لم يكن عند يونس العلم إلا ما يراه بعينه)<sup>18</sup> وقال عنه أبو الخطاب: (مثل يونس كمثّل كوز ضيق الرأس، لا يدخله شيء إلا بعُسْر؛ فإذا دخله لا يخرج منه)<sup>19</sup> يعني أنه لا ينسى، إضافة إلى ذلك فقد ذكر المؤرخون

[ 6 ] هو حماد بن سلمة بن دينار البصريّ الرّبعيّ بالولاء (ت167هـ)، أبو سلمة، مفتي البصرة، وأحد رجال الحديث، ومن النحاة. كان حافظاً، ثقة، مأموناً. انظر تهذيب التهذيب للعسقلاني 11/3، ونزهة الألباء للأنباري 50.

[ 7 ] هو سعيد بن أوس بن ثابت الأنصاري (119-215هـ) أحد أئمة الأدب واللغة، من أهل البصرة، كان يرى رأي القدرية. كان سيبويه إذا قال: (سمعت الثقة)، عنى أبا زيد. انظر تهذيب التهذيب للعسقلاني 8/4، وتهذيب تاريخ ابن عساکر 121/6، وميزان الاعتدال في نقد الرجال للذهبي 375/1.

[ 8 ] هو خلف بن حبان، أبو محرز المعروف بالأحمر (ت180هـ): رواية عالم بالأدب، شاعر من أهل البصرة، قال أبو عبيدة معمر بن المثنى: خلف الأحمر معلم الأصمعي، ومعلم أهل البصرة، كان يضع الشعر وينسبه إلى العرب. انظر إرشاد الأريب للحموي 179/4، ومراتب النحويين للغوي 46، وبغية الوعاة للسيوطي 442، والشعر والشعراء لابن قتيبة 308.

[ 9 ] هو صالح بن اسحاق، الجرميّ بالولاء (ت225هـ) أبو عمر، فقيه، عالم بالنحو، واللغة من أهل البصرة. انظر بغية الوعاة للسيوطي 268، وفيات الأعيان لابن خلكان 228/1، نزهة الألباء للأنباري 206.

[ 10 ] انظر مجالس العلماء للزجاجي 21، 244، 254، وطبقات النحويين واللغويين للزبيدي 127، نزهة الألباء للأنباري 61، وإنباه الرواة للقفطي 265/2.

[ 11 ] انظر معاني القرآن للفراء 127/1، 137/2، 37.

[ 12 ] معجم الأدياء للحموي 65/20.

[ 13 ] هو يحيى بن المبارك بن المغيرة العدويّ اليزيدي (138-202هـ) أبو محمد، عالم بالعربية والأدب من أهل البصرة. عاش أيام الرشيد، وأدب ولذّه المأمون. انظر وفيات الأعيان لابن خلكان 230/2 وإرشاد الأريب لياقوت الحموي 289/7، وخزانة الأدب للبغدادي 426/4.

[ 14 ] انظر المزهر للسيوطي 268/2، 275، 276، 289، 299 ومعجم الأدياء لياقوت الحموي 67/20 والفهرست لابن النديم 63 وتاريخ الأدب العربي لبروكلمان 130/2 والمفصل للحلواني 207.

[ 15 ] انظر الكتاب 238/1، 346، وانظر مجاز القرآن لأبي عبيدة 157/1، 156، 194/2، 193.

[ 16 ] المزهر للسيوطي 257/2، 276.

[ 17 ] انظر تاريخ الأدب العربي لبروكلمان 130/2.

[ 18 ] طبقات النحويين واللغويين للزبيدي 48.

[ 19 ] طبقات النحويين واللغويين للزبيدي 48.

## نحوه:

اتسمت شخصية يونس بن حبيب العلمية بأنها جمعت بين اللغة، والنحو. أمّا اللغة فقد كان بارعاً في فهم غريبها، ومعرفة اشتقاقاتها، وأمّا النحو فإنّه يتضح من خلال نظراته الدقيقة، وتناولاته في فهم التركيب النحوي للجملة، ومعرفة الظواهر الإعرابية؛ وإلى ذلك أشار المبرّد مشيداً بعلمه، وتفوقه على أبي زيد في النحو، ومضاهاته له في اللغة؛ ذلك في قوله: (كان أبو زيد عالماً في النحو، ولم يكن مثل الخليل، وسيبويه، وكان يونس من باب أبي زيد في العلم باللغات، وكان يونس أعلم من أبي زيد في النحو) <sup>21</sup>.

وإذا أردنا أن نكشف منهجه النحوي، ونسبر أغواره، فإنّ أبرز ما يسعفنا في ذلك هو كتاب سيبويه؛ نظراً لما يتمتع به من ثقة في الرواية، ودقة في الأخذ. وقد أشاد يونس نفسه بسيبويه، وأمانته في النقل؛ فقد (ذكر سيبويه عند يونس بن حبيب البصري، فقال: أظنّ هذا الغلام يكذب على الخليل، فقيل له: وقد روى عنك أشياء فانظر فيها، فنظر فيها، وقال: صدق في جميع ما قال، هو قولي) <sup>22</sup>. أمّا ما ذكره ابن سلام الجمحي في طبقات فحول الشعراء <sup>23</sup> فإنه لا يخرج عن كونه إشارات من تلميذ إلى بعض أخبار أستاذه، ولا يمكننا اللجوء إليها في رسم ملامح يونس النحوية، لذلك لم يبق لنا إلا الكتاب لنستعين به في الوصول إلى آراء يونس النحوية.

إذا كان يونس قد عاش في زمن تجاوز مرحلة النشأة، والتأسيس، فقد عاصر مع الخليل وسيبويه تكامل الصورة النحوية، وبيان قواعدها، وهذا يظهر من خلال تعرّضه لكلّ الأبواب النحوية، ودخوله في دقائقها مستفيداً من جهود سابقه من النحاة؛ ففي كتاب سيبويه تظهر صورة الخليل بن أحمد واضحة؛ لأنّ الخليل هو أستاذ سيبويه وشيخه، كذلك نرى صورة يونس بارزة تتفوق على الخليل حيناً وتفضّل عليه؛ من ذلك قول سيبويه: (سألت الخليل عن (القاضي) في النداء فقال: أختار (يا قاضي)، لأنه ليس بمنون، كما أختار: هذا القاضي، وأمّا يونس فقال: يا قاض. وقول يونس أقوى) <sup>24</sup>.

ونرى سيبويه في موضع آخر يختار رأي يونس، ويستحسنه من غير إشارة إلى رأي الخليل؛ ذلك في قوله: (إن تأنّيتي أتك، وإن أكرمتك، إذا جعلت الكلام على أوله ولم تقطعه، وعطفته على الأول، وإن جعلته مستقبلاً نصبت، وإن شئت رفعت على قول من ألغى، وهذا قول يونس، وهو حسن) <sup>25</sup>.

وفي موضع آخر يشير سيبويه إلى يونس ويضعه على قدم المساواة مع الخليل بن أحمد وذلك في مسائل كثيرة؛ منها قوله: (وسألت الخليل رحمه الله، ويونس عن نصب قول الصلّتان العبدى <sup>26</sup> :

يا شاعراً لا شاعر اليوم مثله جريراً ولكن في كليب تواضع <sup>27</sup>  
فزعم أنه غير منادى، وإنما انتصب على إضمار كأنه قال: يا قائل الشعر شاعراً، وفيه معنى حسبك به شاعراً) <sup>28</sup> ، وغير ذلك كثير <sup>29</sup>.

وفضل سيبويه في تصغير (أحوى) رأي يونس على رأي عيسى بن عمر، وأبي عمرو ابن العلاء، ذلك في قوله: (وأما عيسى فكان يقول: أحى ويصرف، وهو خطأ.... وأمّا أبو عمرو فكان يقول أحى... وأمّا يونس فقوله: هذا أحى كما ترى، وهو القياس والصواب) <sup>30</sup>.

يتضح لنا أنّ يونس بن حبيب يُعدّ ركيزة قوية في صرح النحو العربي، إضافة إلى الخليل وسيبويه من خلال آرائه التي ذُكرت في الكتاب، وكثرة النقول عنه.

[ 20 ] انظر نزهة الألباء للأنباري 49، ومعجم الأدباء 64/20.

[ 21 ] نزهة الألباء للأنباري 126-127.

[ 22 ] نزهة الألباء للأنباري 62.

[ 23 ] انظر طبقات فحول الشعراء للجمحي 17/1.

[ 24 ] الكتاب 184/4.

[ 25 ] الكتاب 15/3.

[ 26 ] هو قُثم بن خبيّة العبدى (ت 80هـ) من بني محارب بن عمرو، شاعر حكيم، قال فيه الأمدى: مشهور خبيث، وهو صاحب القصيدة التي أولها: أشاب الصغير وأفنى الكبير كرى الغداة ومرّ العشي

انظر المؤلف والمختلف للأمدى 145، الشعر والشعراء لابن قتيبة 196، خزنة الأدب للبغدادي 308/1

[ 27 ] كليب رط جريير من بني تميم. والشاهد فيه نصب (شاعراً) على الاختصاص والتعجب، والمنادى محذوف تقديره: يا هؤلاء أو يا قوم، حسبكم به شاعراً. وإنما امتنع أن يكون منادى لأنه نكرة عنده، يدخل فيه كلّ شاعر بالحضرة، وهو إنّما قصد شاعراً بعينه وهو جريير فلو كان منادى لبني حينئذ على الضم، وقوله (جريير) خبر لمبتدأ أي: هو جريير الذي أتعب منه. قال الشنتمري: ويجوز عندي أن قوله شاعراً منادى جرى لفظ المنكور، وإن كان مخصوصاً معروفاً، لوصفه بالجملة التي بعده، والجملة لا يوصف بها إلا النكرة.

[ 28 ] الكتاب 236/2-237.

[ 29 ] انظر الكتاب 205/2، 214، 374، 119، 149/3، 221، 281، 396، 418، 474، 522.

[ 30 ] الكتاب 472/3.

## منهجه: بين السماع والقياس

إنَّ أبرز ما يميز منهج يونس بن حبيب ميله إلى السماع عن العرب، ويظهر ذلك في كتاب سيبويه من خلال ما يرويه عن سماع يونس، ورسده لكثير من الظواهر اللغوية، وإطلاقه الأحكام، والقواعد على ما يسمعه عن العرب؛ حتى إننا نراه أحياناً يبني قواعده على كلام بعض العرب، لا كثرتهم، وإن كان الأخذ بكلام القلة يخالف القياس؛ من ذلك أنَّ العرب تُسقط ياء المتكلم من الاسم المنادى نحو قوله تعالى: [يا عبادِ فاتقون] <sup>31</sup> ، لكنَّ يونس يزعم ثبات الياء في الأسماء <sup>32</sup> . ومنه أنَّ الجملة العربية توجب نصب المستثنى إذا كان متقدماً على المستثنى منه، لكنَّ يونس ذكر أنَّ (بعض العرب الموثوق بهم يقولون: مالي إلا أبوك أحدٌ) <sup>33</sup> ، وقد يخالف يونس القياس ويبعد عن اللغة الشائعة كزعمه (أنَّ ناساً من العرب يقولون: مررتُ بماءٍ قعدةً رجلٍ، والجرُّ الوجهُ) <sup>34</sup> . ونرى يونس في مواضع كثيرة يتقيد بكلام العرب، وينقل عنهم من دون إشارة إلى قاعدة أو حكم؛ من ذلك ما نقله سيبويه بقوله: (وزعم يونس أنَّ العرب تقول: إنَّ بَدَلَك زيداً، أي: إنَّ مكانك زيداً، والدليل على هذا قولُ العرب: هذا لك بَدَل هذا؛ أي هذا لك مكان هذا) ثمَّ يعقب سيبويه على زعم يونس بقوله: (وإن جعلت البديل بمنزلة البديل قلت: إنَّ بَدَلَك زيداً؛ أي: إنَّ بديلك زيداً) <sup>35</sup> ، ومثل ذلك كثير <sup>36</sup> .

يتضح لنا من الأمثلة السابقة أنَّ يونس يبتعد عن القياس، ويأخذ بما يسمعه، فاللغة الفصيحة عنده ما نطق به أصحابها دون تأثر بأي لغة، وكان حديثهم عفويّاً، وإن كانوا قلّة من حيث العدد، وقوله: قال بعض العرب، لا يعني تقليلاً من قيمة المسموع، لأنّه يعتمد في منهجه أصالة المصدر، والمكان الذي يقيم فيه الأعراب، فإن عاشوا في منطقة شاعت فصاحتها أخذ بكلامهم، سواء أكانوا كثرة أم قلّة.

ونرى يونس أحياناً يعالج المسألة النحوية من منظار وصفي انطلاقاً من الوظيفة التي يؤديها اللفظ في سياق الجملة، أو التركيب؛ من ذلك قوله تعالى: [ذلك الذي يبشّر الله عباده] <sup>37</sup> ؛ فقد ذهب يونس إلى أنَّ (الذي) في الآية الكريمة حرفٌ مصدرى، ويقوم بوظيفة (أن) أو (ما)، واستدلَّ بالآية الكريمة على جواز وقوع (الذي) حرفاً مصدرياً، وكان لرأيه هذا أثرٌ بالغ في الخلاف الواقع حول (الذي)، ومصدريّتها بين مجيز ومانع <sup>38</sup> ، ومن ذلك إنكاره أن تكون (إمّا) التي سبقتها (الواو) حرفاً عطف، وكذلك (لكن)، نحو: جاء إمّا زيد وإمّا عمرو، وما قام زيداً، ولكنَّ عمرو؛ لأنه لا يجوز أن يتباشر حرفان، ومعناهما واحد <sup>39</sup> . وغير ذلك كثير <sup>40</sup> .

لذا فإنَّ الملامح العامة لمنهجه يغلب فيها السماع على القياس غلبة ظاهرة، على غرار ما كان عليه أستاذه أبو عمرو بن العلاء، وقد ظهر ذلك من خلال اهتمامه بالرواية عن العرب، واعتماده لما يسمعه في قبول آراء تخالف القياس عند غيره.

إلى جانب السماع كان ليونس بعض الاهتمام بالقياس، حتى إنّه ألف كتاباً فيه <sup>41</sup> ، وجعل القياس مدخلاً إلى كثير من قواعده، حتى قالوا عنه: (وله قياس في النحو، ومذاهب يتفرّد بها) <sup>42</sup> . يتسم قياس يونس بأنّه يضمّ الظواهر المتشابهة، ويقبس بعضها إلى بعض فهو يجيز أن يقال: كم مثله لك، وكم خيراً منه لك، وكم غيره لك، و(كلّ هذا جانز حسن؛ لأنه يجوز بعد عشرين) ولم يُجيز (كم غلماناً لك، لأنك لا تقول: عشرون ثياباً لك إلا على وجه لك مائة بيضاء، وعليك راقودٌ خلاً. فإن أردت هذا المعنى قلت: كم لك غلماناً) <sup>43</sup> . ويقبس الضمير على الاسم الظاهر، ويعطيه حكمه ويجيز: أعطيتكمه، وأعطيتكمها قياساً على أعطيتكم كتاباً <sup>44</sup> ، وأجاز: اضربْ أيهم أفضل؟ وقاسه على قولهم: أشهد إنك لرسول الله، وعلق الفعل (اضربْ) عن العمل مع العلم أن تعليق (اضرب) مخالف للقياس؛ لأن التعليق خاصٌ بأفعال القلوب، وهو ما ذكره سيبويه <sup>45</sup> . حرص يونس على أن يكون القياس في خدمة القاعدة، ومرتكزاً للاستنباط؛ من ذلك ما ذكره سيبويه بقوله: (وزعم يونس أنَّ (لبيك) اسم واحد، ولكنه جاء على هذا اللفظ في الإضافة، كقولك: (عليك)) <sup>46</sup> فهو يقيس (لبيك)

[ 31 ] الزمر 16/36.

[ 32 ] انظر الكتاب/209.

[ 33 ] الكتاب 337/2.

[ 34 ] الكتاب 112/2.

[ 35 ] الكتاب 143/2.

[ 36 ] انظر الكتاب/185، 213، 276، 361.

[ 37 ] الشورى 32/42.

[ 38 ] انظر شرح التصريح على التوضيح، بحاشية الشيخ ياسين 130/1-131 القاهرة 1954.

[ 39 ] انظر مغني اللبيب 61/1، 62، 324.

[ 40 ] انظر الكتاب/184، 196-197/3، 294، 347.

[ 41 ] انظر تاريخ الأدب العربي لبروكلمان 130/2.

[ 42 ] أخبار النحويين البصريين للسيرافي 34 وانظر نزهة الألباء للأنباري 49.

[ 43 ] الكتاب 159/2.

[ 44 ] انظر الكتاب/377.

[ 45 ] انظر الكتاب/2-399-400.

[ 46 ] الكتاب 351/1.

ويخالف يونس أحياناً الشائع من لغة العرب كإجازته أن تكون (المسكين) حالاً في نحو قولك: مررت به المسكين، قياساً على مررت به مسكيناً، مخالفاً قواعد العربية التي لا تجيز دخول (أل) على الحال<sup>48</sup>.  
إذا كان يونس يخالف الشائع من لغة العرب -كما رأينا- فهذا لا يعني أن يُدْفَع به إلى الابتعاد عن الفصاحة المعتمدة آنذاك، بل على العكس من ذلك، فهو يحتكم في مواضع كثيرة إلى الأفضى من لغة العرب، ويضمّ النظر إلى نظيره ليأخذ بالقاعدة التي وافقت قياس العربية المبني على الشائع، هذا ما عبّر عنه سيبويه من خلال وصفه لطريقة يونس، ومنهجه بقوله: (وأما يونس فكان ينظر إلى كل شيء من هذا إذا كان معرفة كيف حال نظيره من غير المعتل معرفة، فإذا كان لا ينصرف لم يصرف)<sup>49</sup> ويرى أن ما يخالف القياس العام لا يعول عليه، فهو ينكر البناء على القليل، مستدلاً بكلام العرب؛ من ذلك إنكاره أن ينسب إلى فَعِيلَةٍ إلا إذا حذف الياء، لذلك لم يجز قولهم في حَنيفة: حنيفي، وفي سَلِيمَةٍ سَلِيمِي، وفي عَمِيرَةٍ كَلْبِ عَمِيرِي، ووصف ذلك بأنه قليل خبيث<sup>50</sup>.  
ويحاول يونس تفصيل ما يريد، ويصحّح، أو يخطئ لغة بمعالجة تستند إلى القياس الممزوج بالعلّة؛ من ذلك ما أورده سيبويه من أنّ يونس كان ينكر أن يجزّ الاسم بعد (كيف) في نحو: ما مررت برجل مسلم فكيف رجلٌ راعبٌ في الصدفة، (وزعم يونس أن الجرّ خطأ؛ لأنّ (أين)، ونحوها يُبتدأ بهنّ، ولا يُضمّر بعد هنّ شيء)<sup>51</sup>  
ويقيس يونس أحياناً ليجعل من المقيس، والمقيس عليه تعليلاً لظاهرة لغوية؛ من ذلك قياس التصغير، وما يتبعه على جمع التكسير؛ وتعليل ذلك من كلام العرب الفصحاء، يقول سيبويه: (وإنما منعهم أن يقولوا: سفيرجلاً أنهم لو كسروه لم يقولوا: سفارجل، ولا فرزدق، ولا قباعث، ولا شماردل. وسأبين لك إن شاء الله لم كانت هذه الحروف أولى بالطرح في التصغير من سائر الحروف التي من بنات الخمسة، وهذا قول يونس)<sup>52</sup>.

### معايير اللغوية:

لا يتأتى إدراك الواقع اللغوي العربي لعامة الناس، ولا يمكن معرفة مستويات هذا الواقع من قِبل المتكلمين أنفسهم ما لم يملكوا النظرة الصائبة، والحسّ السليم حتى يتمّ استقرار هذا الواقع، وسير أغواره، ليتمّ التمييز الدقيق بين الكلام السليم من جهة، والفاقد من جهة أخرى. ويعدّ يونس بن حبيب من أوائل النحاة الذين أدركوا هذا الواقع، وأجادوا التعامل معه، فعرف مستويات الفصاحة، وحدّد أبعادها، ووضع كلاً منها في مستوى معيّن حكم على أصحابها، وبيّن قربهم، أو بُعدهم من الفصاحة، وصحة الاستدلال بكلامهم.  
وقف يونس عند العرب الفصحاء، ورسم حدود المناطق التي عاشوا فيها، وبيّن مطابقتها للقواعد المستنبطة للشائع من اللغة الفصيحة. ولا بدّ من الإشارة إلى أنّ اللغة الجيدة السليمة لا تلقى معارضة من النحاة، ولا يردّها أحد، ولا يختلفون فيها، إنّما الخلاف والتفاوت في الآراء يكون في الظواهر اللغوية القليلة عند العرب، حيث يقف منها النحاة مواقف متباينة بين مجيز ومنكر، وكم مرة نرى يونس بن حبيب يخالف القياس، ويجيز لغة قليلة، ويصفها بالجودة؛ من ذلك حديثه عن تكرار المنادى في حال الإضافة، كقول جرير:

يا تيمّ تيمّ عديّ لا أبالكُم  
لا يُقَيِّنكُم في سوءِ عمُرٍ<sup>53</sup>

فالمنادى المفرد يكون مبنياً على الضمّ، لكنه ورد بنصب (تيمّ)، وفي ذلك يقول سيبويه: (هذا باب ما يكرر فيه الاسم في حال الإضافة، ويكون الأول بمنزلة الآخر، وذلك قوله: يا زيد زيد عمرو. ويا زيد زيد أخينا، ويا زيد زيدنا. زعم الخليل ويونس أنّ هذا كله سواء، وهي لغة للعرب جيدة)<sup>54</sup> ومقابل ذلك يصف يونس اللغة التي لا يجيزها بأنها

[ 47 ] انظر الكتاب/378/1، يقول الرماني: مذهب يونس في (مررت به وحده) أن ينصبه نصب الظرف، كقولك: هو عنده، والمعنى: مررت به على حياله، ومذهب الخليل أن ينصبه نصب المصدر كقولك: مررت به خصوصاً، وإنما حمله يونس على جهة الظرف لأنه رأى وحده في هذا الموضع ناقص التمكن كناقص التمكن (عنده) وهو نصب كما أنه نصب، وتلزمه الإضافة كما تلزمه، وفيه معنى (على حياله) فحمله على جهة الظرف لهذه العلة، وقول الخليل أقوى، لأنّ وحده أشبه بالمصدر في معناه، وحمله عليه أولى لكثرة نظيره من المصادر، وظهور معنى الاختصاص فيه، الكتاب(حاشية/378/1)،

[ 48 ] انظر الكتاب 76/2.

[ 49 ] الكتاب 312/3.

[ 50 ] انظر الكتاب 339/3.

[ 51 ] الكتاب 435/1، وانظر 291/2.

[ 52 ] الكتاب 418/3.

[ 53 ] البيت لجرير يخاطب فيه تيم بن عبد مناة، وعدي هذا هو عدي بن عبد مناة، نسبه إلى أخيه وعمر هو ابن لجأ، كان ممّن يهاجيه جرير. والسوءة: الفعلة القبيحة. أي امنعوه من هجائي حتى تأمنوا أن ألقبكم في بلية. انظر الكتاب (حاشية) 53/1، وديوان جرير 285 (الصاوي) 1353 هـ، والخزانة 259/1 بولاق 1299 هـ.

[ 54 ] الكتاب 205/2.

وكم موطن لولاي طحنت كما هوى بأجرامه من فلة النيق منهوي<sup>57</sup> فالضمير لا يتصل إلا بما يعمل فيه، فإذا وقع الضمير متصلاً بـ(لولا)، فإن ذلك يدل على عمل (لولا) في ذلك الضمير، والضمير المتصل (باء المتكلم) لا يقع في محل رفع، و(لولا) لا تنصب ما بعدها؛ لذلك لم يبق أمام (لولا) إلا أن تكون حرف جرّ يجرّ الضمير<sup>58</sup>.

فالمعايير اللغوية التي عبّر عنها يونس كانت نتيجة طبيعية لاستقراره، واستتباطه ضمن قيود زمانية، ومكانية. فإذا كانت اللغة محكية من قبل الأعراب في مناطق البداوة، أو كانت موافقة للقياس الشائع فهي جيدة، وهي الأساس الذي جعله على ما دون ذلك صفة القليل، أو القبيح، أو الخبيث.

### تأثره باستدلال الفقهاء:

إذا كان التأثير بالفقهاء حاصلًا عند النحاة الذين سبقوا يونس كالحضرمي، وعيسى، وأبي عمرو بن العلاء فإن يونس قد شهد هو الآخر هذا التأثير. وربما كان الافتراض هو أبرز ما تأثر به النحاة، وأخذوا طريقه عن الفقهاء. وقد برز الافتراض في نحو يونس في بعض الأبحاث النحوية، لا سيما الممنوع من الصرف، والتصغير، شأنه في ذلك شأن أسلافه من النحاة؛ من ذلك افتراضه أنك إذا سميت امرأة بـ(قاص) فإنك تمنعه من الصرف، وتقول: مررت بقاصي قبل<sup>59</sup>، كما يفترض تسمية رجل بـ(امرأة)<sup>60</sup>؛ ومن ذلك افتراضه أنك إذا سميت رجلاً بـ(قبائل)، وأردت تصغيره؛ فإنه يرى أن تحذف الهمزة لأنها زائدة فيصير اللفظ على أربعة أحرف (قبال)، فيصغر على (قبيل)، ويرى الخليل وسيبويه غير ذلك<sup>61</sup>.

من خلال ما مر معنا رأينا أن يونس إمام نحاة البصرة في عصره كان يميل إلى السماع بشكل خاص، من غير أن ينكر القياس؛ وقد أخذ بالسماع متأثراً بشيوخه كما هو حال من سبقه<sup>62</sup>، وكانت حلقة ملتهقى أهل العلم والأدب، ومجمع الفصحاء. وقد روى عنه سيبويه الشيء الكثير، وسمع منه الكسائي والفراء. أما القياس فقد كانت له فيه مذاهب تفرّد بها على الرغم من قلتها<sup>63</sup>، وهذا الأمر يوضح لنا أن أصحاب السماع كيونس، وشيخه أبي عمرو بن العلاء كانوا يقيسون، وبالمقابل، فقد كان أصحاب القياس كعيسى بن عمر، والخليل، وسيبويه يسمعون؛ لكن بعضهم غلب عليه السماع، وبعضهم الآخر غلب عليه القياس. ويونس بن حبيب كان من أبرز النحاة أصحاب مذهب السماع، ويعود تأثر الكثيرين بمذهبه إلى وفرة طلابه، ومريديه الذين غدوا فيما بعد أعلام النحو واللغة آنذاك. ولم يقتصر أثره على نحاة البصرة فحسب، بل تأثر كثير من نحاة الكوفة بمذهب يونس؛ لأن شيخهم الرّواصي<sup>64</sup> أخذ عن أبي عمرو بن العلاء، ومثله الكسائي، وهكذا حتى ظهرت ملامح شخصية يونس في المذهب الكوفي الذي قرن اللغة بالنحو، وابتعد إلى حدّ ما عن القياس والتعليل<sup>65</sup>.

[ 55 ] انظر الكتاب 2/227.

[ 56 ] انظر الكتاب 3/339.

[ 57 ] البيت ليزيد بن الحكم، وهو يعاتب أخاه، أو ابن عمه. وكم للكثير، خيرها تقديره: لي. والموطن: الموقف من مواقف الحرب، أطاح يطوح، ويطيح: هلك. هوى: سقط. الأجرام: جمع جرم بالكسر، وهو الجسد. والفلة: ما استدار من رأس الجبل. النيق: أعلى الجبل. انهوى: بمعنى هوى. والشاهد فيه: الإتيان بضمير الخفض بعد(لولا)، وهي من حروف الابتداء؛ ووجه ذلك أن المبتدأ بعد(لولا)، وهي من حروف الابتداء؛ ووجه ذلك أن المبتدأ بعد(لولا) لا يذكر خبره، فأشبهه المجرور في انفراده. والأكثر أن يقال: لولا أنت. وقد أنكر الميرر (لولاي، ولولاك) وزعم أنه خطأ لم يأت عن ثقة. انظر الكتاب (حاشية) 2/374.

[ 58 ] انظر الكتاب 2/374. وانظر الكتاب 2/236-75، 77-237.

[ 59 ] انظر الكتاب 3/312.

[ 60 ] انظر الكتاب 3/394.

[ 61 ] انظر الكتاب 3/439.

[ 62 ] انظر أخبار النحويين البصريين للسرياني 33-34.

[ 63 ] انظر أخبار النحويين البصريين للسرياني 33-34، وانظر معجم الأدياء لياقوت الحموي 20-64.

[ 64 ] هو محمد بن علي أبو جعفر الكوفي الرسي، المتوفى 187هـ. أستاذ الكسائي والغراء وأول من وضع كتاباً في النحو من الكوفيين

انظر الفهرست لابن النديم 64، ونزهة الألباء 65.

[ 65 ] انظر المفصل للحلواني 236.

## ثبت المصادر والمراجع

- القرآن الكريم

الكتب:

- الأخفش الأوسط: أبو الحسن، سعيد بن مسعدة، ت 215 هـ  
\* "معاني القرآن"، تح: فانز فارس، ط2، الكويت 1981م
- الأصفهاني: أبو الفرج، علي بن الحسين ت 356 هـ  
\* "كتاب الأغاني"، مصور عن طبعة دار الكتب، مصر، بلا تاريخ، وطبعة الساسي.
- الأنباري: أبو البركات، عبد الرحمن بن محمد، كمال الدين ت 577 هـ  
\* "نزهة الألباء في طبقات الأدباء"، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة، 1967م
- البغدادي: عبد القادر بن عمر ت 1093 هـ  
\* "خزانة الأدب"، ولب لباب لسان العرب، بولاق 1299 هـ .
- ثعلب: أبو العباس، أحمد بن يحيى ت 291 هـ  
\* "مجالس ثعلب"، تح: عبد اللام هارون، ط2، مصر 1956م
- ابن الجزري: محمد بن محمد ت 833 هـ  
\* "غاية النهاية في طبقات القراء"، تح: ج. برجستراسر، مصر 1932م.
- ابن جني: أبو الفتح، عثمان بن جني ت 392 هـ  
\* "الخصائص"، تح: محمد علي النجار، الطبعة الثانية بيروت بلا تاريخ.  
\* "المحتسب في تبیین وجوه شواذ القراءات، والإيضاح عنها"، الجزء الأول: تح: النجدي ناصف، والنجار، وشلبي، القاهرة 1386 هـ والجزء الثاني: تح: النجدي ناصف، وشلبي، القاهرة 1389 هـ.
- ابن خلكان: أبو العباس، شمس الدين، أحمد بن محمد بن إبراهيم ت 681 هـ  
\* "وفيات الأعيان" مصر 1310 هـ
- الزبيدي: أبو بكر محمد بن الحسن بن عبيد الله ت 379 هـ  
\* "طبقات النحويين واللغويين"، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة 1954 م، وطبعة 1973م.
- ابن سلام: أبو عبد الله، محمد بن سلام بن عبيد الله الجمحي ت 232 هـ  
\* "طبقات فحول الشعراء"، تح: محمود محمد شاكر، دار المعارف، بلا تاريخ وطبعة 1974م.
- السيرافي: أبو سعيد، الحسن بن عبد الله بن المرزبان ت 368 هـ  
\* "أخبار النحويين البصريين" كرنكو، بيروت 1939م
- سيبويه: أبو بشر، عمرو بن عثمان بن قنبر ت 180 هـ  
\* "الكتاب"، تح: عبد السلام هارون، عالم الكتب، بيروت، بلا تاريخ
- السيوطي: جلال الدين، عبد الرحمن بن أبي بكر ت 911 هـ  
\* "الأشباه والنظائر في النحو" تح: إبراهيم محمد عبد الله، مجمع اللغة العربية، دمشق 1986م  
\* "بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة"، مصر 1326 هـ
- الطبري: أبو جعفر، محمد بن جرير ت 310 هـ  
\* "جامع البيان عن تأويل آي القرآن"، تح: محمود محمد شاكر، مصر، 1969م
- أبو الطيب اللغوي: عبد الواحد بن علي العسكري ت 351 هـ  
\* "مراتب النحويين" مصر 1375 هـ
- أبو عبيدة: معمر بن المثنى التيمي ت 210 هـ  
\* "مجاز القرآن"، تح: محمد فؤاد سزكين، بيروت الطبعة الثانية 1981م
- العسقلاني: ابن حجر، أبو الفضل، شهاب الدين أحمد بن علي بن محمد ت 852 هـ  
\* "تهذيب التهذيب"، حيدر آباد الدكن 1325-1327 هـ
- الفراء: أبو زكريا، يحيى بن زياد ت 207 هـ  
\* "معاني القراء"، بيروت، ط2 1980م.
- ابن قتيبة: أبو محمد، عبد الله بن مسلم بن قتيبة ت 276 هـ

- \* "الشعر والشعراء"، تح: أحمد محمد شاكر، مصر 1966م.
- القفطي: علي بن يوسف ت 646 هـ
- \* "إنباه الرواة على أنباه النحاة"، دار الكتب، مصر 1374-1369 هـ
- المرزباني: أبو عبيد الله، محمد بن عمران بن موسى ت 384 هـ
- \* "معجم الشعراء"، تح: عبد الستار فراج، مكتبة النوري، دمشق، بلا تاريخ.
- ابن النديم: محمد بن إسحاق، ت 438 هـ
- \* "الفهرست" مطبعة الاستقامة، بلا تاريخ
- ياقوت الحموي: أبو عبد الله، شهاب الدين، ياقوت بن عبد الله الرومي ت 626 هـ
- \* "معجم الأديباء (إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب) طبعة الرفاعي، القاهرة، بلا تاريخ.
- الرسائل الجامعية:
- الحلواني: محمد خير
- \* "الاحتجاج وأصوله في النحو العربي"، رسالة دكتوراه، جامعة عين شمس، مصر 1974م
- المجلات:
- مجلة مجمع اللغة العربية
- \* مج: 18 ج 10